تمظهرات الخطاب القِيَّمِي في المدونة النقدية
قراءة أركيولوجية

د. جميلة بنت عبد الله العبيدي
أستاذ الدراسات الأدبية والنقدية المساعد
بجامعة الطائف

ملخص البحث

موضوع هذا البحث هو تمظهرات أو ملامح الخطاب القيمي في المدونة النقدية العربية القديمة والحديثة، فقد اهتم الإنسان العربي بالأخلاق في جاهليته وإسلامه، وإن كان الاهتمام في الإسلام أكثر وضوحًا، ولكن على الرغم من هذا فقد زعمت بعض الدراسات أن الوظيفة الأخلاقية لم تكن يومًا وظيفة للشعر في النقد العربي وقد بين هذا البحث خطأ هذا الزعم، وذلك من خلال استقراء عمل عديد من النقاد المتصلة كتبهم بالشعر والشعراء على اختلاف طرقهم وتفرع آرائهم. وذلك من خلال مبحثين، يتناول المبحث الأول ماهية الخطاب القيمي وصوره، ويتناول المبحث الثاني الخطاب القيمي في المدونة النقدية وذلك من خلال آلية نقد النقد واعتمادًا على المنهج الأركيولوجي المعني بالبحث في الخطاب ونُظمه المعرفية والتاريخية عن طريق الحفر والتنقيب في الخطاب نفسه.

الكلمات: المفتاحية: الخطاب – القيمة – نقد النقد – الأركيولوجي.

Research Summary

The subject of this research is the manifestations or features of the value discourse in the ancient and modern Arab critical code. In Arabic criticism, this research showed the error of this claim, by extrapolating the work of many critics whose books are related to poetry and poets, regardless of their different ways and the branching of their opinions.

This is done through two sections, the first section deals with the nature of the value discourse and its images, and the second section deals with the value discourse in the critical blog, through the mechanism of critique of criticism and depending on the archaeological approach concerned with researching the discourse and its cognitive and historical systems by digging and excavating in the discourse itself.

Keywords: discourse – value – criticism of criticism – archaeology.

المقدمة:

احتفى العربي بقيمه الأخلاقية واعتز بها، إذ هي ضمن النسق الثقافي الذي تؤكده المنظومة الاجتماعية العربية على المستويين السلوكي والإدراكي المعرفي، وقد انعكس هذا الاهتمام بدوره على الإبداع الفني العربي المتمثل في الشعر والنثر حتى أصبح للقيم قاموس دارج لا تكاد تخلو منه قصيدة أو خطبة، فهو قوام الأمة، يقول شوقي[١]:

إنمـــا الأمـــمُ الأخـــلاقُ مـــا بقيـــت فـــإن هُـــمُ ذهبـــت أخلاقهـــم ذهبـــوا

وتعرّف القيمة على أنها "لغة: قيم الشيء تقييمًا، قدر قيمته، والمدلول المادي: خاصية تجعل الأشياء مرغوبًا فيها"[٢]، وقد ورد في لسان العرب لابن منظور "قوَّم السلعة واستقامتها قدرها. والقيمة واحدة القيم وأصله: الواو لأنه يقوم مقام الشيء، والقيمة ثمن الشيء بالتقوم. وأمر قيم مستقيم، وفي الحديث: **"أتاني ملكٌ فقال: أنت قيم، وخُلقك قيم"**. أي مستقيم حسن، وفي الحديث: **"ذلك الدين القيم الذي لا زيغ فيه ولا ميل عن الحق"**[٣].

ولعل فيما أورده ابن منظور ما يشير إلى تطور المعنى اللغوي لمصطلح القيمة وانتقاله إلى المعنى الاصطلاحي الأخلاقي من خلال وصف الشيء القيم بأنه مستقيم، والاستقامة أمر أخلاقي، وبأنه حسن، وذلك ما يؤكده حديثا رسول الله ρ المذكوران في نص اللسان.

ويربط المجمعيون بين مصطلح القيمة والقيم المطلقة، وذلك حيث يقول: "القيمة من حق وخير وجمال تكون صفة عينية كامنة في طبيعة الأقوال (في المعرفة) والأفعال (في الأخلاق). والأشياء (في الفنون). وما دامت كامنة في طبيعتها فهي ثابتة لا تتغير بتغير الظروف والملابسات، وبهذا قال المثاليون العقليون، وبهذا المعنى تُطلب لذاتها ... صفة يخلعها العقل على الأقوال والأفعال والأشياء طبقًا للظروف والملابسات، وبالتالي تختلف باختلاف من يصدر الحكم، وبهذا قال الطبيعيون من الحسيين والوضعيين والبرجماتيين والوضعيين المنطقيين والقيمة

بهذا المعنى تعني الاهتمام بشيء أو استحسانه أو الميل إليه والرغبة فيه، ونحو هذا مما يوحي بأن القيمة ذات طابع شخصي ذاتي خلو من الموضوعية، وتكون وسيلة إلى تحقيق غاية"(٤).

ويتضح من خلال تعريف مجمع اللغة العربية اقتراب مفهوم القيمة عند المثاليين العقليين من مفهوم الخلق أو الأخلاق التي عرّفها علي بن محمد السيد الشريف الجُرجاني بأنها "عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلًا وشرعًا بسهولة سُميت الهيئة خُلقًا حسنًا، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة سُميت الهيئة التي هي المصدر خُلقًا سيئًا، وإنما قلنا إنه هيئة راسخة؛ لأن من يصدر منه بذل المال على الندور بحالة عارضة لا يقال خُلقه السخاء ما لم يثبت ذلك في نفسه، وكذلك من تكلف السكوت عند الغضب بجهد أو روية لا يقال خُلقه الحُلم.

وليس الخُلق عبارة عن الفعل، فرب شخص خُلقه السخاء لا يبذل، إما لفقد المال أو لمانع، وربما يكون خلقه البُخل، وهو يبذل لباعث أو رياء"(٥). فالخلق ليس الفعل ولكنه هيئة نفسية راسخة في النفس لا يتأثر بعادات المجتمع وأعرافه، أما القيم فهي وثيقة الصلة بأعراف المجتمع وعاداته فهي حسب تعريف الطبيعيين من الحسين والوضعيين والبرجماتيين ذات طابع شخصي ذاتي خلو من الموضوعية وتكون وسيلة برجماتية لتحقيق غاية.

وإذا كان أرسطو طاليس قد قسمَّ "الخلق إلى فضيلة ورذيلة، أما الفضيلة فهي كما قال أرسطو: وسط بين الإفراط والتفريط، فإذا اعتبرنا النفس الإنسانية مؤلفة من ثلاث قوى: العقلية والشهوانية والغضبية كانت الفضائل الأساسية ثلاثًا، الحكمة والعفة والشجاعة؛ لأن الحكمة وسط بين الجريدة والبلاهة، والعفة وسط بين الفجور والجمود، والشجاعة وسط بين التهور والجبن، وإذا اجتمعت هذه الفضائل الثلاث في نفس واحدة حصلت من اجتماعها فضيلة العدالة"(٦). فإن جميل صليبا يربط بين القيمة وبين الخير في مجال الأخلاق، يقول: "ويُطلق لفظ القيمة في علم الأخلاق على ما يدل عليه لفظ الخير، بحيث تكون قيمة الفعل تابعة لما يتضمنه من خيرية. فكلما كانت المطابقة بين الفعل والصورة الغائية المرتسمة على صفحات الذهن بالقيم المثالية وهي الأصل الذي تبنى عليه أحكام القيم أي الأحكام الإنشائية التي تأمر بالفعل أو بالترك"(٧).

وترتبط القيم الأخلاقية –بوصفها ذاتية وليست موضوعية– بالمجتمع وتدخل في نسيجه ونسقه الخاصين بوجوده الإنساني والجوهري حتى يُمَيّز مجتمع عن آخر بمجموعة من القيم التي يتفرد بها عن غيره.

يرتهن دارسو علم الخطاب إلى عدد من الأمور التي تجعل للخطاب قيمة معرفية وأثر فعال في مدونة الخطاب القيمي كأحد الأنواع التي لم تجد اهتمامًا في المدونة النقدية العربية اللهم إلا في ملاحظات نقدية قليلة وفي بيئات نقدية خاصة مثل موازنة السيدة سُكينة ابنة الإمام الحُسين بن عليّ τ وعنهم وبين جرير والفرزدق وجميل وكُثير ونُصيب(٨). فقد اهتم النقد العربي بالخطاب الأدبي في جانبه الإبداعي الذي قد يحمل مهمة تعزيز القيمة من خلال محاولة المبدعين تمثل القيم وتصديرها بطرق إبداعية مختلفة، فحضور القيمة قد لا يكون غاية هذا الخطاب الإبداعي؛ بل قد يأتي ضمنيًا، من ذلك مثلًا احتفاء الشعر العربي بالكرم بوصفه قيمة خُلقية حتى لا تكاد قصيدة من القصائد في أغراض معينة تخلو منه، وهذه القيمة تختلف في حضورها وتشكلها من نص شعري إلى آخر، حيث تتشكل القيمة بأشكال متعددة حسب اختلاف البيئة والحمولة الثقافية للعصر نفسه.

يتناول هذا البحث دراسة الخطاب القيمي في المدونة النقدية العربية القديمة من خلال استقراء عمل عدد من النقاد المتصلة كتبهم بالشعر والشعراء على اختلاف طرقهم، وتفرع آرائهم، كما لا يعني هذا خلو غيرها من هذا الخطاب، لكن الدراسة تهدف إلى وضوح الخطاب ومباشرته في منجزهم النقدي.

ويقوم هذا البحث على مبحثين أساسيين هما: ماهية الخطاب القيمي وصوره، وهو مبحث يعني بتعريف الخطاب القيمي وآلياته وصور تشكله في الخطاب النقدي، أما المبحث الثاني فيتعلق بالخطاب القيمي في المدونة النقدية القديمة، وهو مبحث تطبيقي يستقصي بعض آراء النقاد القدامى في القيمة الأخلاقية.

أما الآلية في هذا البحث فهي نقد النقد، وهي غاية أولى تهدف إلى تسليط الضوء على الجهود التي تخدم هذا الموضوع بداية من استقصاء أو تلمس النقد العربي الحديث –بوصفه نصًا لاحقًا– لهذا الخطاب القيمي، ثم تلمس ما ورد عنه في النقد العربي القديم بوصفه نصًا سابقًا، أما الغاية الأخرى فهي محاولة الإجابة عن سؤال يتعلق بوجود الخطاب القيمي في المدونة

النقدية العربية القديمة والحديثة، وذلك لطبيعة العلاقة الوثيقة بين الشعر والنقد، وهو سؤال البحث.

أما المنهج المعتمد في هذا البحث فهو المنهج الأركيولوجي الذي يُعنى بدراسة الخطابات والكشف عن نظمها المعرفية والتاريخية عن طريق الحفر والتنقيب في الخطاب نفسه.

ويعرف المنهج الأركيولوجي Archéologque الذي أسسه (ميشال فوكو) والمسمى أيضًا بالحفريات بأنه يتضمن عددًا من الإجراءات التي يكون فيها المنهج دالًا على التوصيف الدقيق، كما أنه يدل على الفكرة الأساسية والمحورية العامة لوصفٍ هدفه استنطاق ما قيل في مستوى وجوده في مستوى الوظيفة العبارية التي تمارس عليه والتشكيلة الخطابية التي ينتسب إليها والمظومة العامة لاحتفاظه وظهوره"[٩].

والإجراء الأركيولوجي حسبما عرضه (ميشال فوكو) في كتابه أركيولوجيا المعرفة الذي أصدره عام ١٩٦٩م هو "إجراء موجه قصدًا إلى تداولية اجتماعية تاريخية للممارسات الخطابية باعتبارها قابلة للمفهمة كوقائع خطابية مبنية في إطار مكاني زماني لابستمي"[١٠].

وهذا المنهج هو المنهج الملائم للنقد القيمي على أساس أن مفهوم القيمة ذاتي وليس موضوعيًا كما سبق القول.

المبحث الأول

ماهية الخطاب القيمي (الخطاب الإكسيولوجي)

إن مفهوم الخطاب القيمي (الخطاب الإكسيولوجي) ممكن إدراكه من خلال تقسيمه إلى قسمين لهما الأهمية ذاتها، فمصطلح خطاب له دلالته في المدونة النقدية. أما القيمة فنعني بها هنا القيمة (الإكسولوجيا) في معناها الفلسفي المتصل بالأخلاق.

وفي اللغة "قيَّم الشيء تقييمًا، قدر قيمته"(١١)، والقيمة "قيمة الشيء قدره، وقيمة المتاع ثمنه"(١٢)، والإكسولوجيا مصطلح مُعّرب عرَّفه مراد وهبة بأنه "مشتق من مقطعين يونانيين هما: Axia بمعنى قيمة، و Sogos بمعنى عقل أو نظرية، وهو اللفظ الذي يطلق حاليًا على نظرية القيم المرغوب والمفضل والخير، وطبيعتها ومعاييرها"(١٣).

ويرى عادل العوا أن الأصل الإغريقي أو اليوناني لمصطلح إكسيولوجيا "يدل على معنى ما هو ثمين أو جدير بالثقة، وهذا يعني أن الإكسيولوجيا علم يبحث فيما هو ثمين، بتقدير قيمته، وتكون الفلسفة المتصلة به فلسفة قيم أو نظرية قيم"(١٤).

ويمكن رصد هذا الخطاب من خلال ما درج النقاد في العصر القديم على تناوله، خاصة في تحديدهم لوظيفة الأدب(١٥)، وقد يكون تحديد وظيفة الأدب بمعناها الإجرائي الكامل عند النقاد العرب القدامى مرحلة غير واضحة المعالم، إذ أنهم قصروا تلك الوظيفة على الوظيفة الجمالية المتعلقة بجماليات الشكل، يتضح ذلك في تعريفاتهم للشعر وهو الفن الأهم في تلك المرحلة والذي حمل المعرفة العربية حيث "اهتمت بالشكل الخارجي للشعر أكثر من اهتمامها بصورة الشعر وماهيته"(١٦). وهذا لا يعني انتفاء أهمية الأخلاق في تعريفاتهم وحرصهم على ربط

الشعر بعدد من الفضائل، لكنها إشارات غير منتظمة، وبدت الأهمية للمعنى الذي يُعد الجزء الأهم عند عدد لا يُستهان به من النقاد، ومن هنا ظهرت قضية اللفظ والمعنى المشهورة في المدونة العربية القديمة.

فمعظم تعريفات الشعر عند النقاد العرب القدامى تقوم على عناصر البناء الشكلي بما يوحى "للوهلة الأولى أن النقد العربي نقد شكلي، وأن جل اهتمام النقاد العرب إنما انصب في معالجة الأطر الخارجية للشعر"(١٧).

وقد ذهبت بعض الدراسات إلى أن العرب "في نقدهم الأدبي قلما عرضوا لغير النقد الاستاطيقي، لأنهم لم يعرفوا النقد الإكسيولوجي التحليلي ولم يطرقوا النقد البيئي أو التاريخي إلا بصورة بدائية ظاهرة الضعف لكنهم كانوا في أدبهم من أقدم وعاة الفن للفن"(١٨) أي أن الجانب الآخر بعد الاهتمام بالمعنى هو الجانب الشكلي، وهو اهتمام فني جمالي بحت كما يسميه نقاد العصر الحديث.

من هنا يتضح أن الاهتمام بالشكل في نظر هؤلاء الدارسين نفى عن النقاد العرب القدامى الاهتمام بالتحليل والتاريخ وغيرها من المناهج النقدية التي تستبطن النص، إلا أن هذه النظرة تحاول تعزيز فكرة العلاقة العقلية العربية النقدية آنذاك، والتي كانت تعتمد في نقدها على الجزئيات أكثر من النظرة الكلية في التحليل النقدي.

ولكن ثمة اتجاه آخر يؤكد على وعي النقاد العرب القدامى بالوظيفة الأخلاقية للشعر، ودوره في تغيير السلوك أو ما يعرف بالوقفة السلوكية، فقد ورد في كتاب العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيرواني أن الشعر هو "ما أطرب وهز النفوس وحرك الطباع"(١٩) وذكر حازم القرطاجني أن "الأقاويل الشعرية ... القصد بها استجلاب المنافع واستدفاع المضار، ببسطها النفوس إلى ما يراد من ذلك، وقبضها عما يراد، بما يخيل لها فيه من خير أو شر"(٢٠).

ويرى جابر عصفور أن "ذلك قول لا يجعل الشعر من قبيل المتعة العارضة أو التسلية الهينة أو الوصف المنمق، أو مجرد الدعاية التي تهدف إلى الإقناع على حساب الحقيقة؛ بل هو قول يشد الشعر إلى مهمة أخلاقية لها آثارها في حياة الفرد والجماعة. وما دم المقصود بالشعر – فيما يقول حازم– هو إنهاض النفوس إلى فعل شيء أو طلبه أو اعتقاده، فمن المنطقي أن يكون الموضوع الأساسي في صناعة الشعر هو الأشياء المتصلة بما يفعله الإنسان ويطلبه ويعتقده، ومن

المنطقي أيضًا أن تكون أداة صناعة الشعر متصلة بغايته أو مؤدية إليها، فتظل منتسبة إلى الفعل الإنساني من زاوية الطلب أو الاعتقاد أو الممارسة"[٢١].

لذا فحري بالبحث أن يجيب عن السؤال حول وجود الخطاب القيمي في المدونة النقدية العربية القديمة ومدى ظهوره أو تجليه، وللوصول إلى ذلك ينبغي أولًا المرور على استقراء رأي النقاد في العصر الحديث، ذلك لأن دراساتهم من خلال رصدها وتحليلها توضح الشكل العام الذي يظهر عليه هذا الخطاب ومحدداته إن وجدت.

إن الدراسات النقدية الحديثة تناولت الخطاب القيمي في المدونة النقدية العربية القديمة وتمحورت حول ما يسمى بالأخلاق في الشعر العربي وعناية النقاد بها، لكن فكرة استقراء الأخلاق في النقد القديم خضع لعدد من الاعتبارات، أولها: شمولية معنى الأخلاق واستخداماتها، فهي في بعض الدراسات مرتبطة بالمعرفة والصدق والفضيلة في المدح [٢٢]، كما أن بعض هذه الدراسات أكدت بشكل تفصيلي على أن قضية ارتباط الدين بالأخلاق ثم قضيتي الصدق والكذب كان لها تأثير كذلك حيث "ارتبط تأسيس النقد الأخلاقي بمسألتين، الأولى: قضية الشعر والدين، والثانية: قضية الصدق والكذب"[٢٣]. إضافة إلى بعض المآخذ المتصلة بالخروج على العُرف الاجتماعي.

في جانب آخر يؤكد بعض الدارسين المحدثين على أن الشعر اتصل بالأخلاق بداية من العصر الإسلامي "لكنها في العصر الإسلامي أخذت منحى آخر يقوم على تعاليم هذا الدين الجديد الداعية إلى التمسك بالأخلاق والتحلي بالفضائل، حيث إن نصوص القرآن والسُنة جاءت متضافرة في هذا"[٢٤]، وقد عزت دراسة أخرى ظهور هذا الاتجاه لبيئات متنوعة حيث "أسهمت بيئات متعددة في تزكية الاتجاه الأخلاقي في النقد، وإبراز معالمه وتطويره، وهي البيئة الدينية، وأفراد من البيئة اللغوية، وأفراد من النقاد والبيئة السياسية، وهذه البيئات – ولأسباب متباينة– تبنت الناحية من النظرية غالبًا مواقف أخلاقية، كان على أفرادها أن يعلنوا عن تبنيها إما بحكم الالتزام الديني، والمسؤولية السياسية، أو الموقف الأدبي"[٢٥]، وهو موقف ينفي ارتباط الشاعر الجاهلي بالأخلاق، ويُعد الدين مسببًا لهذا الحضور الأخلاقي في الشعر، وهو كما يبدو ليس الرأي الأرجح في نظر بعض النقاد، إذ إن هناك استقراء آخر يوضح أن النقاد العرب القدامى في هذا الأمر ينقسمون إلى فرق متعددة، هي: "فرقة تتمسك بموقف القرآن الكريم والرسول والخلفاء في قبول الشعر الذي يتفق وروح الإسلام، وفرقة ترى أن الدين

ينبغي ألا يكون مقياسًا للحكم على شاعرية الشعراء وقيمْهم... وفرقة تتأرجح بين هذه وتلك، فترى نظريًا أن الشعر يضعف إذا دخل في باب الدين والخير"[٢٦].

لقد اختلف النقاد في العصر الحديث في تأكيد احتفاء النقد العربي القديم بالقيمة الأخلاقية، أو الاعتماد على القيمة الجمالية، "وقد يبدو هذا التفاوت بين تأكيد القيمة الأخلاقية من جهة والاحتفال بالقيمة الجمالية من جهة أخرى مدخلًا للقول بتناقض أحكام العرب وازدواج نظرتهم النقدية"[٢٧].

وفي دراسة أخرى تختلف في تناولها عن الدراسات السابقة يتضح لنا أن القيم هي مجرد نص قصدي ناتج عن ثقافة الشاعر وبيئته التي تطبع له هذه القيمة[٢٨] أي أن قيمة الكرم التي اشتهر بها العرب تقوم على عدد من الآليات لوصفها وإظهارها كقيمة في الشعر العربي، وهي في الأصل فطرة لا قيمة مثلها مثل الشجاعة وكلاهما يتحدد بمحددات لا يمكن الخروج عنها وهي تقليد أدبي يتشكل وفق معطيات كثيرة يؤكدها شُراح الشعر والشعراء الذين اعتادوا بعض الملامح والمحددات[٢٩].

إن هذه الدراسة بالرغم من اختلافها عن الدراسات السابقة تؤكد أمرًا وهو أن الشعراء كانوا على علم بأهمية كل قيمة، وحولوا بعضًا منها مثل الشجاعة والكرم والوفاء إلى خطاب شعري يمكن رصده والخوض في تفاصيله ابتداء باللوم ثم رمزية النار وحضورها ثم الكلب وإشارته إلى الكرم وتوظيف الذئب ثم ربطها بالدين وما تواتر من الآداب الإسلامية التي أقرت بهذا الشأن، أي: أن القيمة الأخلاقية بحسب السريحي تستلزم أخرى لتأكيدها والقيمتان في النهاية هي صفة يلتزم بها الشاعر ويبرر لها الشُراح دون اعتبار للقيمة نفسها[٣٠].

وقبل الولوج إلى أي حكم يتعلق بهذا الخطاب ينبغي التطرق إلى بعض الدراسات التي تتناول التفكير النقدي عند العرب، فمن خلالها يمكن الوصول إلى تفكيك المنهج النقدي بعيدًا عن أي قضية ترتبط به، ومن هذه الدراسات النقد المنهجي عند العرب لمحمد مندور[٣١]، والذي قسم مناهج العرب النقدية من حيث تناول الشعر إلى أقسام، وكل قسم، يرتبط بعدد من الممارسات التي يمارسها النقاد في تلك المرحلة، فمنهم من يستخدم منهجًا يشبه المنهج الحديث مثل الآمدي وآخر يستخدم المنهج التاريخي وغيرهما ممن عرض له في النقد، وفي هذا الاستقراء للمناهج النقدية لم يُذكر حرصهم على الأخلاق، إلا مع الآمدي[٣٢].

في حين أن محمد بن مريسي استعرض العديد من المقولات التي تكشف عن وظيفة النقد ووظيفة الشعر وهذا كله "يؤكد توظيف الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي القديم عند النقاد والمفكرين، لكن الذي جعل لهذا الاتجاه أهميته ودوره الذي لا يُنكر في قوام الشعر هو هذا الهدي الرباني ..."(٣٣).

وهو بهذا القول يربط الشعر بالدين والفضيلة والصدق والكذب وبرأي الرسول والخلفاء الراشدين، وهي محاولة جادة لإثبات عناية النقاد في تلك المرحلة التي حددوها بالأخلاق، وهو يؤيد ذلك مؤكدًا أن الشاعر والناقد والمجتمع آنذاك كان معنيًا بالأخلاق خاصة بعد ظهور الإسلام الذي قنن كثيرًا من الأمور.

وعلى ما يبدو أن كثيرًا من دراسات النقد العربي الحديث حينما رصدت الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي القديم أغفلت ثلاث محطات رئيسة في هذا الاتجاه وهي ابن طباطبا العلوي، وقدامة بن جعفر، وحازم القرطاجني؛ وهذا ما تنبه إليه جابر عصفور في كتابه مفهوم الشعر: دراسة في التراث النقدي.

ففي تناوله لمهمة الشعر أو وظيفته عند ابن طباطبا العلوي(٣٤) ينطلق من إيمان ابن طباطبا بالمقولة القديمة التي تصف الشعر بأنه ديوان العرب التي تحمل دلالة تصوير الشعر القديم للجوانب المادية والمعنوية من حياة العرب، وتصوير الحياة المعنوية يعني أن الشعر القديم يصور جوانب القيم المختلفة في حياة العرب.

فابن طباطبا يعكس من حياة العرب المعنوية "ما في طبائعها وأنفسها من محمود الأخلاق ومذمومها، في رخائها وشدتها، ورضاها وغضبها، وفرحها وغمها، وأمنها وخوفها، وصحتها وسقمها، والحالات المتصرفة في خلقها من حال الطفولة إلى حال الهرم، وفي حال الحياة إلى حال الموت"(٣٥).

وهنا "يتكشف الجانب الغائي للشعر من هذه الزاوية؛ ويتم التركيز على المثل الأخلاقية للعرب، ويدور هذا التركيز حول نقيضين لا يفارق الشعر إطارهما في الغالب: خصال ممدوحة، تمدحت بها العرب ومدحت بها، وخصال مذمومة نفرت منها العرب، وذمت من كان عليها أو رُمي بها، أما الخصال الممدوحة فمنها في الخَلْق الجمال والبسطة، (ومنها في الخُلُق السخاء والشجاعة، والحلم والحزم والعزم، والوفاء والعفاف، والبر، والأمانة، والقناعة، والغيرة، والصدق،

والصبر، والتورع، والشكر، والمداراة، والعفو، والعدل، والإحسان، والأنفة، والدهاء، وعلو الهمة، والتواضع، والبيان، والبِشر، والجلد، والتجارب، والنقض والإبرام، وما يتفرع من هذه الخلال التي ذكرناها من قِرى الأضياف... واجتلاب المحبة، والتنزه عن الكذب، ... والاستكثار من الصدق، والقيام بالحُجة[٣٦]، أما الخصال المذمومة فهي أضداد الخصال السابقة؛ وتترتب بوضع نقيض كل خصلة سابقة في موضعها. ولنلاحظ أن التركيز في هذه الخصال على الجانب الأخلاقي"[٣٧].

بل إن ابن طباطبا حين ذكر هذه القيم الأخلاقية عنون لها بعنوان: (المثل الأخلاقية عند العرب وبناء المدح عليها). وراعى التقسيم الفلسفي للأخلاق إلى فضائل ورذائل، وذكرها كاملة غير منقوصة بما يدحض ما ذهبت إليه هذه الدراسات.

وعند تناوله لوظيفة الشعر عند قدامة بن جعفر، ذكر جابر عصفور[٣٨] أن قدامة قد أفاد من حصر أفلاطون للفضائل، وهي العقل والشجاعة والعدل والعفة. ولكن بفهم مغاير لفهم أفلاطون، يقترب من فهم أرسطو لهذه الفضائل، ولفهم الإسلام لها، من حيث القول بالوسطية أو الوسط المثالي أو الوسيط الذهبي، حيث تقع كل فضيلة بين طرفين مذمومين أو تقع في مرتبة وسط بين رذيلتين، من هنا "وجب أن يكون ... المصيب من الشعراء، من مدح الرجال بهذه الخلال لا بغيرها، والبالغ في التجويد إلى أقصى حدوده من استوعبها ولم يقتصر على بعضها"[٣٩].

وكذلك فعل حازم القرطاجني إضافة عن كشفه لارتباط الأخلاق بالدين حيث تتعلق التحسينات والتقبيحات بالأشياء قولًا أو فعلًا أو اعتقاد من جهات أربع: الدين والعقل والمروءة والشهوة، بمعنى أن الحكم بالحسن أو القبح ينصب على القول والفعل والمعتقد، والمقصود بالمروءة الأخلاق، والمقصود بالشهوة صلاح الحال، يقول جابر عصفور: "فالتقبيح والتحسين يتحقق عند حازم من أربع زوايا:

- أولًا: إما أن يحسن الشيء من جهة الدين وما تؤثره النفس على تركه وإهماله، وإما أن يقبح من ضد ذلك.
- ثانيًا: وإما يحسن الشيء من جهة العقل وما يجب أن يؤثره الإنسان من جهة ما هو عاقل ذو أنفة من الجهل والفاقة وإما أن يقبح من ضد ذلك.

- ثالثًا: وإما أن يحسن من جهة المروءات والكرم وما تؤثره النفس من الذكر الجميل والثناء عليه أو يقبح من ضد ذلك.
- رابعًا: وإما أن يحسن من جهة الحظ العاجل وما تحرص عليه النفس وتشتهيه مما ينفعها من جهة ما تؤثر من النعمة وصلاح الحال أو يقبح من ضد ذلك.

ومن المؤكد أن هذه الزوايا الأربع تمثل معيارًا أخلاقيًا له ثباته في تحديد البعد الأخلاقي للشعر"[٤٠].

لقد اختلف النقاد في استقراء هذا الخطاب كما ذُكر سابقًا واستخدموا في الحديث عن الأخلاق المنهج الوصفي القائم على توصيف الأمر بوصفه خلقًا قائمًا لا خطابًا قيميًا قصديًا متعمدًا، والدليل على ذلك أنهم يعتمدون على ما يقال في هذا الجانب من خلال ما أثر به النقاد والشعراء في هذا الجانب دون النظر إلى مكونات القيمية نفسها وتشكلها في الخطاب.

الفرق بين الاتجاه الأخلاقي والخطاب القيمي:

يمكن فهم الفرق بين الأمرين عند تفسير طبيعة كل مصطلح وطبيعة تمثله، فالاتجاه الأخلاقي يتمثل في طبيعة الشاعر والناقد وبيئتهما التي تربيا فيها وعاشا داخل منظومتها القيمية، يضاف إليها طبيعة المجتمع العربي التي تحتفي بالشعر وتعده فنًا نفيسًا تتنافس القبائل في التأكيد على حضوره كما ذكر ابن سلام الجُمحي في طبقات فحول الشعراء: "ذكرنا العرب وأشعارها والمشهورين المعروفين من شعرائها وفرسانها وأشرافها وأيامها، إذ كان لا يُحاط بشعر قبيلة واحدة من قبائل العرب"[٤١] وفي المدونة الشعرية والنقدية القديمة كان الشعراء والنقاد يؤكدون على عدد من القيم الأخلاقية في الشعر والمكتسبة من البيئة نفسها؛ فالشاعر ابن بيئته التي تجل الكريم وتحتفي به وهي نفسها التي تتغنى بالشجاعة كقيمة خلقية مرتبطة بالفرسان والقادة حتى أصبح هناك سلسلة من الأخلاق تشكل معجمًا خاصًا للشاعر ويحرص الناقد على وجودها وتحققها دون النظر إلى معياريتها، فالكريم في نظر قبائل تميم هو نفسه عند قبائل قريش مهما اختلف التعبير عنه، إن العرب وعلى قدر احتفائهم بمكارم الأخلاق وعنايتهم بها إلا أنهم لم يضعوا الأخلاق كمعيار مهم في الشعر، ويمكن رصد ذلك في جانبين هما، الأول: على مستوى الشاعر؛ فلم يأبه الشاعر بالقيمة الأخلاقية من حيث كونها قيمة عليا ينبغي الالتفات إليها وتأكيد ظاهرها في القصيدة إلا في بعض الاستثناءات المتعلقة بالاعتذار أو بإكرام الضيف وهي

في معرض الفخر وفي المدح، وفي الوقت نفسه ناقضها في الهجاء ومع ذلك كانت معالجته لها معالجة خفيفة يستوجبها بناء القصيدة كما ذكر سعيد السريحي(٤٢).

حيث كانت الأغراض الشعرية محددة من قبل وسار الشاعر وفق غرضه وما تمليه عليه قريحته، فمدح وهجى ورثى وغير ذلك، إذ كان يهمه أن تبدو القصيدة حسنة اللفظ وأن يسير بها الركبان وتفخر بها القبيلة.

وكلام السريحي فيه نظر لسببين، أولهما: أنه بنى رأيه على فرضية مؤداها أن الشكل الفني ينشأ في الذهن أولًا ثم ينظر إلى المعنى أو المضمون، وواقع الإبداع الفني يُخطئ هذه الفرضية. وثانيهما: أنه ينكر على الشعر العربي الاهتمام بنقد المعاني، ومصادر النقد العربي تعج بالملاحظات النقدية المتعلقة بنقد المعاني أذكر منها ما يتعلق بقيم أخلاقية غير الكرم والشجاعة اللتين قصر السريحي اهتمام الشاعر العربي عليهما.

فمنها ما رواه ابن قتيبة في الشعر والشعراء حيث يقول: "دخل الأقيشر على عبد الملك وعنده قوم فتذكروا الشعر وذكر قول نُصيب:

أهيم بدعد ما حييتُ فإن أمت فيا ويح دعد من يهيم بها بعدي؟

فقال الأقيشر: والله لقد أساء قائل هذا الشعر، قال عبد الملك: فكيف كنت تقول لو كنت قائله، قال: كنت أقول:

تحبكم نفسي حياتي فإن أمت أوكل بدعد من يهيم بها بعدي

قال عبد الملك: والله لأنت أسوأ قولًا منه حين توكل بها! فقال الأقيشر: فكيف كنت تقول يا أمير المؤمنين؟ قال: كنت أقول:

تحبكم نفسي حياتي فإن أمت فلا صلحت دعد لذي خلة بعدي

فقال القوم جميعًا: أنت والله يا أمير المؤمنين أشعر القوم"(٤٣).

فقد عاب عليهم عبد الملك بن مروان عدم الغيرة، والغيرة من القيم الأخلاقية التي يحرص عليها العرب والمسلمون. ومن هذه القيم استهجان سوء الجزاء واستحسان حسن الجزاء، وهو أحد معايير الحكم على مضمون القصيدة وهو معيار أخلاقي مأخوذ من حديث الرسول ρ "حيث قال للأنصارية المأسورة بمكة وقد نجت على ناقة لها. فقالت: يا رسول الله، إني نذرت إن نجوت عليها أن أنحرها، فقال رسول الله ρ: **لبئس ما جزيتها** ..."[٤٤].

وقد أورد المرزباني في الموشح: "أخبرني محمد بن أبي الأزهر، قال: حدثنا محمد بن يزيد النحوي. قال: قد عاب بعضهم قول الشماخ:

إذا بلغتنـــــي وحملـــــت رحلـــــي عُرابـــــة فاشـــــرقي بـــــدم الـــــوتين

وقال: كان ينبغي أن ينظر لها مع استغنائه عنها... قال: ومما لم يحب في هذا المعنى قول عبد الله بن رواحة الأنصاري لما أمَّره رسول الله ρ بعد زيد وجعفر في جيش مؤتة[٤٥]:

إذا بلغتنـــــي وحملـــــت رحلـــــي مســـــيرة أربـــــع بعـــــد الحســـــاء

فشـــــأنك فـــــانعمي وخـــــلاك ذم فـــلا أرجـــع إلـــى أهلـــي ورائـــي ...

فهذه الملاحظات النقدية تتعلق بقيم أخلاقية لا علاقة لها بالكرم أو بالشجاعة، وهي وليدة مواقف ولا علاقة لها بتصور بناء القصيدة مما يدحض ما ذهب إليه سعيد السريحي ومثلها الكثير في المصادر النقدية العربية، ولا يطعن عليها قول قدامة ابن جعفر "أن المعاني كلها معرضة للشاعر، وله أن يتكلم فيما أحب وآثر، من غير أن يحظر عليه معنى يروم الكلام فيه، إذ كانت المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعة والشعر فيها كالصورة"[٤٦] وأن قدامة في هذه المقولة يتناول العلل الفلسفية الأربعة: المادية والصورية والفاعلة والغائية.

لقد اتفق الشعراء على مكارم الأخلاق، ومدحوا الكريم والشجاع والذائد عن عِرضه وغيرهم ممن يتحلون بأخلاق محمودة، هم أيضًا تغنوا بهذه المكارم ونظروا إلى بعض الأخلاق والتحلي بها من منظور آخر يعبر عن وجودهم الإنساني داخل المجتمع العربي فـ"لا ينجو المرء في موقف الكرم من أحد أمرين: فهو ملوم إن أنفق كما هو مذموم إن أمسك، وإذا كان إمساكه علة في وسمه بالشُح والبُخل فإن إنفاقه علة في رميه بالسفه وإهلاك ماله"[٤٧]. وهذا دليل على

إدراك الشاعر والناقد والمجتمع والمتلقي العربي بطبيعة القيم الأخلاقية، لأنها تقوم على الوسطية أو ما يُعرف بالوسط المثالي، فكل فضيلة تقع في مرتبة وسط بين رذيلتين، وصدق الله العظيم إذ يقول في وصف عباد الرحمن:" و كان بين ذلك قوامًا" ّ [٤٨]. أي مستقيمًا والاستقامة والقيمة أصلهما واحد[٤٩].

إن الشاعر هو من يؤسس لشيوع هذه المنظومة الأخلاقية، فهو وسيلة الإشهار الأهم، لذا كان لبعض شعراء الصعاليك مفهوم آخر عن القيم –قلنا القيم وليس الأخلاق لأن القيم ذاتية وتتأثر بالبيئة المحيطة- يثبت تمردهم على بعض القيم وإدراكهم لها بطريقتهم الخاصة. فالصعاليك كان لهم بعض الأمور التي يرونها شرفًا في أعرافهم، كالسطو على الأغنياء وانتزاع ممتلكات الآخرين لغاية إنسانية. وهي قيم مضادة وليست قيمًا أخلاقية عالية حتى وإن شرُف الغرض، فالسلب والسرقة سُوء خُلق وليست موطن مدح، وقد كان (عروة بن الورد) أحد أهم شعراء الصعاليك أنفسهم "وهكذا وجد عروة نفسه محاطًا بمجموعة من الأعراف والأيديولوجيات الاجتماعية التي لا تعترف بهوية الذات المفردة، إذا قلَّ المال بيديها أو إذا كان في نسبه ما ينزل به عن درجة أولئك السادة، لذلك فقد اتخذ من التمرد على تلك الأيديولوجيا وسيلة يحقق بها ذاته من خلال التماثل مع أعراف اجتماعية أخرى تحث على السعي والبذل والدفاع لإقامة أنساقه الاستعلائية التي تعمل على تحرر الذات من قيود المجموع القبلي إلى الفعل والقيمة"[٥٠].

يتضح إذن أن القيم الأخلاقية قد تُخترق من قبل بعض الشعراء، وبالرغم من ذلك فقصائد الصعاليك تظهر في مؤلفات النقاد والشعراء القدامى لغايات فنية وتاريخية، وقد تتبع (يوسف خُليف) وجودها في النقد القديم كالمفضليات والأصمعيات وحماسة أبو تمام وحماسة الخالديين وحماسة البحتري وجمهرة أشعار العرب وغيرها[٥١]. واللافت للنظر أن المختارات أو الاختيارات كذلك كان يقوم عليها شعراء مثل: أبي تمام والبحتري، وقد بنيت اختيارتهما على معايير فنية ترتبط بالشعر لا بالقيمة، و إذا نظرنا إلى معايير عمود الشعر عند المرزوقي وهي سبعة لا نجد منها ما يتصل بالقيمة إلا معيارًا واحدًا هو شرف المعنى وصحته وبقية المعايير تتصل بالصياغة الفنية، ولعل هذا المعيار هو الذي دفع (محمد بن مريسي الحارثي) إلى القول: "أسهم أصحاب الاختيارات الشعرية في تنمية الاتجاه الأخلاقي في النقد عندما اختاروا الأنماط الشعرية في تنمية الاتجاه الأخلاقي..."[٥٢].

فالمرزوقي كان قد أوضح أن أبا تمام كان يصلح ما يلقاه لا يناسبه، حيث يقول: "على أني نظرت فوجدت أبا تمام قد غيرّ كثيرًا من ألفاظ البيوت التي اشتمل عليها هذا الكتاب، ولعله لو أنشر الله الشعراء الذين قالوها لتبعوه وسلموا له"(٥٣).

ومعنى ذلك أن الشاعر حين كان يمارس النقد كان معنيًا باللغة متمثلة في اللفظ والمعنى، لا بالقيمة الخلقية أو امتدادها وتنافرها مع القيم الموجودة في عصره، ويتجلى هذا الموقف النقدي في موقفهم من شعر الهجاء، فقد كان الشعراء يلجأون إليه لدوافع متعددة، وقد يفحش الشاعر في هجائه لغرض في نفسه، فقد كان "الأخطل يلتمس الشهرة عن طريق الهجاء حتى يتاح له هجاء الأنصار مستندًا إلى حماية يزيد بن معاوية ..."(٥٤).

والأخطل قال عنه أبو عمرو بن العلاء: "لو أدرك الأخطل يومًا واحدًا في الجاهلية ما قدمت عليه أحدًا، هذا يعني إن دل على شيء فإنما يدل على إحساسه بأن شعر الأخطل قد وصل في نضجه الفني إلى مستوى الشعر الجاهلي، وليس هناك ما يشينه في رأيه سوى عصره أو زمنه"(٥٥).

وفي قصيدة الحطيئة التي تمثل فيها خلق الكرم تمثلًا واضحًا، وخالف السائد في الشعر من حيث البناء كانت العناية بالألفاظ أهم من الظاهرة ذاتها، وكان الكرم الموجود فيها كرمًا مصطنعًا قياسًا إلى البيئة التي يعيش فيها، فالكرم بهذا الزخم نادر ومحال، أو كرمًا مستحيلًا كما يقول (صالح الغامدي)(٥٦): لقد كان الشعر صنعة فنية عالية الخصوصية يستوجب النظم فيه ذهنًا وحذقًا وتوظيفًا عالي الدقة والخصوصية، لذا كان الشاعر يكتب القصيدة ويختارها بعناية لغرض لا علاقة له بما بالمجتمع أو تأصيل قيمه، بل يهمه أن يكون لسان قبيلته ولسان أيديولوجيته التي ينتمي إليها.

ثانيًا: على مستوى النقد أو الناقد:

اختلفت معايير النقاد القدامى في تناولهم للشعر وقضاياه، وتفاوت النقاد في أحكامهم على الشعر، حيث كان لكل واحد منهم منهجه الذي يسير عليه، لقد عُني بعض الشعراء بالحديث عن أخلاق العرب وتمثلها في الشعر، بل جعل ابن رشيق القيرواني الأخلاق والتمثل بها سببًا في نشوء الشعر، يقول: "وكان الكلام كله منثورًا فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم

أخلاقها وطيب أعراقها وذكر أيامها الصالحة وأوطانها النازحة وفرسانها الأنجاد وسمائحها الأجواد لتهز أنفسها إلى الكرم، وتدل أبنائها إلى حسن الشيم"[٥٧].

وبالرغم من رعاية الجانب الأخلاقي وجعله سبب تفضيل الشعر ونشوئه فإن القصد هو بنية الشعر وتلقيه لا القيمة ذاتها، فالتغني بالأخلاق هو أحد وجوه الفخر الذي كانت تُتهم به العرب. من جانب آخر ذكرت الأخلاق بقسميها: الفضائل والرذائل عند (ابن طباطبا) كما سبق القول، بينما اقتصر الأمر عند (قدامة بن جعفر) على الفضائل حيث ذكر عددًا من الفضائل وبرر استخدامها، وهي: العقل والشجاعة والعدل والعفة، فقال: "كان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع خصال مصيبًا والمادح بغيرها مخطئًا"[٥٨]، وقد فصل القول في المدح بالفضائل السابقة وجعل ذلك محصورًا في المبالغة ومقاربتها للحقيقة أي: أن الغرض يتطلب تفصيل ما أو إغراق "ومن الشعراء أيضًا من يفرق في المدح بفضيلة واحدة أو اثنتين، فيأتي على آخر ما في كل واحدة منهما أو أكثر، وذلك إذا فعل مصيبًا به الغرض في الوقوع على الفضائل، ومقصرًا عن المدح الجامع لها، لكنه يجود المديح كلما أغرق في أوصاف الفضيلة"[٥٩]، أي أن المدح يتطلب الإغراق في الفضائل، لا علاقة له بمعيارية القيمة ذاتها، وهذا ما أكده (ابن قتيبة الدينوري) في معرض حديثه عن البناء المحكم للقصيدة والتي ذكر فيها الأغراض، ثم ذكر النسيب والتشبيب في بناء القصيدة فقال: "فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقًا منه بسبب وضاربًا فيه بسهم حلال أو حرام"[٦٠] وهو هنا لم يأبه بالقيمة الأخلاقية التي تلتصق بالتشبيب أو الغزل؛ بل أحد الأساليب المتعلقة بجودة الشعر "فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب، وعدل بين هذه الأقسام فلم يجعل واحدًا منها أغلب على الشعر، ولم يطل فيمل السامعين..."[٦١]. إذن فالمعيار ليس الحلال (الفضائل) أو الحرام (الرذائل) بل العدل (التناسب) في بناء القصيدة وفق ما نظمها الأوائل. هذا بالنسبة لبعض الفضائل، فماذا عن فضيلة الصدق، هل هي قيمة خُلقية أم واجب فني يستلزمه الشعر الجيد في نظر النقاد؟

لقد تحدث (ابن طباطبا العلوي) عن الصدق في معرض حديثه عن المعاني والألفاظ وعن شعر المولدين في عصره الذين لم يبق لهم من المعاني شيء، فإن أرادوا أن يجيدوا الشعر فعليهم التزام هذه الفضيلة، يقول: "ومع هذا فإن من كان قبلنا في الجاهلية الجهلاء، وفي صدر الإسلام من الشعراء كانوا يؤسسون أشعارهم في المعاني التي ركبوها على القصد للصدق فيها مديحًا وهجاءً وافتخارًا ووصفًا وترغيبًا وترهيبًا إلا ما قد يحتمل الكذب فيه في حكم الشعر من

الإغراق في الوصف والإفراط في التشبيه، وكان مجرى ما يورد دونه مجرى القصص الحق، والمخاطبات بالصدق"[٦٢]، إن الصدق هنا ليس الفضيلة الأخلاقية (أي: الصدق الواقعي) وإنما الصدق المعنى بمقاربة الحقيقة في الشعر (الصدق الفني) والتي يقابلها الغلو والإغراق، لقد ذكرنا هذه الفضيلة تمهيدًا لرأي (ابن طباطبا) في المثل الأخلاقية عند العرب، وبناء المدح والهجاء عليها، فقد ذكر (ابن طباطبا) عددًا كبيرًا من هذه المثل يُبنى عليها المدح وأضدادها التي يُبنى عليها الهجاء، إن هذه الفضائل أو الخصال المحمودة ليست إلا ألفاظ لها دلالتها الاستعمالية[٦٣] في السياق الشعري، "ولتلك الخصال المحمودة حالات تؤكدها، وتضاعف حُسنها، وتزيد في جلالة المتمسك بها ... كالجود في حال العُسر موقعه فوق موقعه في حال الجدة ... وعلى هذا التمثيل جميع الخصال التي ذكرناها، فاستعملت العرب هذه الخلال وأضدادها، ووصفت بها في حال المدح والهجاء مع وصف ما يستعد به لها ويتهيأ لاستعماله فيها وشعبت منها فنونًا من القول وضروبًا من الأمثال وصنوفًا من التشبيهات ستجدها على تفننها واختلاف وجوهها في الاختيار الذي جمعناه، فتسلك في ذلك منهاجهم وتحتذي على مثالهم"[٦٤].

ويتضح مما سبق أن هذه الوصية النقدية تؤكد على استعمال الخصال المحمودة أو الفضائل في الشعر والتعرف عليها وعلى مواطن قوتها وأضدادها حتى يستطيع الشاعر أن يسير على منهاج العرب ويصبح شعره مطابقًا لما قالوا في المعنى، وإن الصدق المطلوب هو تمثلها بصورة تراعي ظهورها في مكانها ووقتها المناسبين وإلا كانت مبالغة وسوء سبك.

يمكن أيضًا تناول الجانب الأخلاقي من خلال شعراء المجون الذين ظهروا قديمًا وموقف النقاد منهم، فـ(الثعالبي) تناول عددًا منهم في يتيمة الدهر مرارًا كمثل قوله: "ولولا أن جد الأدب جد وهزله هزل كما قال إبراهيم بن المهدي لصنت كتابي هذا عن كثير من كلام من يمد يد المجون فيعرك بها أذن المحرم، ولكنه على علاته تتفكه الفضلاء بثمار شعره وتستملح الكبراء ببنات طبعه ..."[٦٥]، وقد قال هذا الكلام في معرض حديثه عن أحد كبار شعراء المجون في باب ذكر محاسن (أبي عبد الله الحسن بن أحمد بن الحجاج) "وهو وإن كان في أكثر شعره لا يستتر من العقل بسجف ولا يبني رجل قوله إلا على سخف فإنه من سحرة الشعر وعجائب العصر"[٦٦] وهذا رأيه أيضًا في (ابن سكرة) الذي قال عنه: "شاعر متسع الباع في أنواع الإبداع، فائق في قول الملح والظرف، أحد الفحول الأفراد جار في ميدان المجون والسخف ما أراد"[٦٧] ومثل هذه الملاحظات النقدية قد وردت كثيرًا في مصادر النقد العربي القديم لدى النقاد الذين

كانوا يأنسون بما ينظمه شعراء المجون أو الزندقة وغيرهم، ذلك أن عنايتهم باللغة أهم من عنايتهم بالأخلاق التي تُنتهك في هذه القصائد، وهو أمر محمود إذ ينزع الناقد القصيدة من سياقها ومن قائلها ومن نسقها ليهتم بجمال بنائها وتركيبها.

وعلى الجانب الآخر كان (الجاحظ) يمتدح عددًا من المحاسن والأخلاق في كتابه المحاسن والأضداد والذي ذكر فيه عددًا من القيم الخُلقية كالشجاعة والكرم والصدق وغيرها، وهي قيم جمع لها أقوال العرب والعجم وغيرهم من الأمم واستعان بالشعر والنثر من خطب للتأكيد عليها، لكنه لم يضع القيمة بمعياريتها في حسبانه، فمثلًا أورد قصة (جحدر والحجاج) "وكان لسنًا فاتكًا شجاعًا شاعرًا"(٦٨)، وتحدث عن شعره وعن شجاعته لكن قيمة الشجاعة لم يربطها بالشجاعة في الحق، فـ(جحدر) أحد أشهر اللصوص في العصر الأموي، إذن فالشجاعة في نظر (الجاحظ) في هذه الملاحظة لا معيارية.

يظهر فيما سبق أن النقاد لم يهملوا الجانب الأخلاقي بل هو مشكل ونسق مهم في حياتهم وفي تربيتهم ومجتمعهم العربي، لكنه لم يخرج إلى حدود الخطاب، بل كان مجموعة ملاحظات إما بالإيجاب أو السلب على ما يقال، وعند بعضهم كانت الكيفية التي تذكر فيها القيمة أهم من القيمة ذاتها.

الخاتمة

بعد هذه الرحلة مع الخطاب القيمي وتشكيلاته والدلالة التي يحملها من المبدع الناقد إلى المتلقي أمكن الوصول إلى كثير من النتائج أهمها:

- احتفل الشعر العربي ونقده بالقيمة الأخلاقية كثيرًا، إلا أنها لم تتحول فيه إلى خطاب إكسيولوجي حيث لم تكن الوظيفة الأخلاقية واضحة في ذهن كثير من النقاد العرب القدامى.

- مثلت الوظيفة الأخلاقية (الخطاب القيمي) وظيفة للشعر عند المدرسة المغربية في النقد المتأثرة بالثقافة الهلينية وعلى رأسهم حازم القرطاجني.
- مثلت المعايير الأخلاقية المرتبطة بالدين خطابًا قيميًا في المدونة النقدية العربية. وربما اهتموا بها على مستوى اتصاف الفرد بها دون أن تصبح معيارًا نقديًا يحكم به على القصيدة العربية.
- غلبة الأحكام الاستاطيقية على النقد العربي القديم أو ما يمكن أن نسميه الفن للفن.
- القيمة موجودة في الخلفية المعرفية للشاعر العربي والناقد العربي القديم ولكنها لا تشكل مجموع وحدات يمكن اعتبارها مشكلات للخطاب.
- ارتباط القيمة في المدونة النقدية العربية بالغرض الشعري ولا سيما المدح والفخر، فهي ليست ذات أهمية إلا إذا تطلبها الغرض.
- أكثر القيم ورودًا في المدونة الشعرية العربية القديمة هي الكرم والشجاعة والصدق والحلم والعدل.
- إن مفهوم القيمة يهتز أو يتلاشى في شعر المجون والصعلكة، فهي تمرد على المنظومة القيمية، فالمجون هدم مباشر لكل القيم العربية، والصعلكة هدم للمنظومة القيمية المتوارثة، فالصعلوك له نظام القيم الخاص به يتشابه مع القيم العربية في المظهر العام مع اختلاف السياق.
- ملامح الخطاب القيمي لم تظهر في النقد العربي الحديث إلا في بضع دراسات هي التي تتناول القيمة وتحيلها إلى عادة مثل دراسة سعيد مصلح السريحي حجاب العادة.
- أدرك النقاد العرب القدامى القيم الأخلاقية في جانبيها الإيجابي والسلبي من خلال تقسيم القيم إلى الفضائل والرذائل.
- لنظرية الفضائل اليونانية تأثير كبير على نظرية الفضائل في النقد العربي القديم ولا سيما في فكر قدامة بن جعفر.
- انتفاء الخطاب القيمي في المدونة النقدية العربية القديمة أو قلته لا ينفي وجود القيم الخُلقية في المجتمع العربي وإيمانه بها.

الهوامش

(١) أحمد شوقي: الشوقيات المجهولة، نشرة محمد صبري السربوني، دار المسيرة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٩م، ص ٧٧.

(٢) مراد وهبة: المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م، ص ٥٠٦.

(٣) ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، د.ت، مادة: (ق و م).

(٤) مجمع اللغة العربية بالقاهرة: المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ١٩٨٣م، ص ٥١ .

(٥) الجُرجاني (علي بن محمد السيد الشريف): التعريفات، تحقيق ودراسة: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، د.ت، ص ٨٩.

(٦) جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢م، ١/٥٤٠.

(٧) المرجع السابق: ٢٠١٣م، ص ٢.

(٨) البيهقي: المحاسن والمساوئ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت، ١/٣٤٩-٣٥٤.

(٩) عبد الحق طالبي: ميشال فوكو وتجاوز المناهج الفلسفية التقليدية، قراءة في المنهج الأركيولوجي، مجلة منتدى الأستاذ، مج ١، عدد ١، ٢٠١٩م، ص ٥٥.

(١٠) مجموعة من المؤلفين بإشراف باتريك شارودو، ودومينك منغنو: معجم تحليل الخطاب، ترجمة عن الفرنسية: عبد القادر المهدي، وحمادي حمود، منشورات دار

سيناترا، المركز الوطني للتنمية، تونس، ٢٠٠٨م، سلسلة اللسان، ص ٦١، ويراجع في ذلك:

- ميشال فوكو: حفريات المعرفة، ترجمة: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٧م.
- ميشال فوكو: إرادة المعرفة، ترجمة: جورج أبي صالح، مركز الإنماء القومي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.

(١١) مجمع اللغة العربية بالقاهرة: المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، ١٤٢٥ هـ/٢٠٠٤م، ص ٧٦٧.

(١٢) المرجع السابق: ص ٧٦٨.

(١٣) مراد وهبة: المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ص ٨١.

(١٤) عادل العوا: العمدة في فلسفة القيم، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م، ص ٤٥.

(١٥) محمد بن مريسي الحارثي: الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي حتى نهاية القرن السابع للهجرة، نادي مكة الثقافي الأدبي، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص ١٧.

(١٦) محمد بن مريسي الحارثي: الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي، مرجع سابق، ص ١٧.

(١٧) المرجع السابق: ص ١٩.

(١٨) روز غريب: النقد الجمالي وأثره في النقد العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٥٣م، ص ١١٧.

(١٩) ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨١م، ١٢٨/١.

(٢٠) حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، ١٩٦٧م، ص ٣٣٧.

(٢١) جابر عصفور: مفهوم الشعر دراسة في التراث النقدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الخامسة، ١٩٩٥م، ص ٢٠٢.

(٢٢) محمد بن مريسي الحارثي: الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي، مرجع سابق، ص ٢٥.

(٢٣) عبد الخالق صديقي: النقد الأخلاقي عند العرب القدماء، مجلة بدايات، المجلد الرابع، العدد الأول، يناير ٢٠٢٢م، ص ١١٢.

(٢٤) طارق زيناي: إشكالية العلاقة بين الشعر والأخلاق في النقد العربي القديم، مجلة قضايا الأدب، الجزائر، المجلد الخامس، العدد الأول، ٢٠٢٠م، ص ٩٤.

(٢٥) مريم النعيمي: النقد بين الفن والأخلاق حتى نهاية القرن الرابع الهجري، المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث، قطر، ٢٠٠٨م، ص ١١.

(٢٦) نجوى صابر: النقد الأخلاقي: أصوله وتطبيقاته، دار العلوم العربية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص ٢٩ بتصرف.

(٢٧) غسان عبد الخالق: الأخلاق في النقد العربي من القرن الثالث حتى القرن السادس، رسالة دكتوراه مخطوطة، الجامعة الأردنية، ١٩٩٦م، ص ٧٣.

(٢٨) سعيد السريحي: خطاب العادة أركيولوجيا الكرم، مدارك للنشر، ٢٠٢١م، ص ١٧.

(٢٩) المرجع نفسه: وقد تراجع سعيد السريحي عن هذه الفكرة وأظهر في النهاية أن هذه القيم سمو روحي يسمو له العرب وقيمة مهمة.

(٣٠) سعيد السريحي: خطاب العادة أركيولوجيا الكرم، مرجع سابق، ص ١٧ بتصرف.

(٣١) انظر: محمد مندور: النقد المنهجي عند العرب، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ٩٩-١٠٠.

(٣٢) المرجع السابق: ص ١١٦.

(٣٣) محمد بن مريسي الحارثي: الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي، مرجع سابق، ص ٢٩.

(٣٤) انظر: جابر عصفور: مفهوم الشعر في التراث النقدي، مرجع سابق، ص ٤٥-٤٦.

(٣٥) ابن طباطبا العلوي: عيار الشعر، تحقيق وتعليق: محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، الطبعة الثالثة، د.ت، ص ٤٤.

(٣٦) ابن طباطبا العلوي: عيار الشعر، مصدر سابق، ص ٥٠-٥١.

(٣٧) جابر عصفور: مفهوم الشعر، مرجع سابق، ص ٤٦.

(٣٨) المرجع السابق: ص ١٠٩-١١٠.

(٣٩) قُدامة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص ٩٦.

(٤٠) جابر عصفور: مفهوم الشعر، مرجع سابق، ص ٢٠٧.

(٤١) ابن سلام الجُمحي: طبقات فحول الشعراء، قرأه وشرحه: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، د.ت، ٣/١.

(٤٢) انظر: سعيد السريحي: حجاب العادة: أركيولوجيا الكرم من الخطاب إلى التجربة، الدار العربية للعلوم، نادي جازان الأدبي، ٢٠١٥م، ص ١٧-١٩.

(٤٣) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد شاكر، دار المعارف، الطبعة الثانية، ١٩٦٦م، ٤١٢/١.

(٤٤) المرزباني: الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت، ص ٧٩.

(٤٥) المرزباني: الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر، مرجع سابق، ص ٧٩-٨٠.

(٤٦) قدامة بن جعفر: نقد الشعر، مصدر سابق، ص ٦٥.

(٤٧) سعيد السريحي: حجاج العادة، مرجع سابق، ص ١٩.

(٤٨) سورة الفرقان: آية ٦٧.

(٤٩) انظر: لسان العرب، مادة: (ق و م).

(٥٠) السيد عطية: تفكيك القيم في الشعر العربي القديم، مجلة نقد وتنوير، السنة ١٤، العدد ١٤، ديسمبر ٢٠٢٢م، ص ١١٣.

(٥١) يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة، د.ت، ص ١٦٤-١٦٥.

(٥٢) محمد بن مريسي الحارثي: الاتجاه الأخلاقي في النقد، مرجع سابق، ص ٨١.

(٥٣) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م، ص ٦٤.

(٥٤) محمد حسين: الهجاء والهجاءون في صدر الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٦٩م، ص ٧٦.

(٥٥) عثمان موافي: الخصومة بين القدماء والمحدثين في النقد العربي القديم تاريخها وقضاياها، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، مصر، د.ت، ص ١٥.

(٥٦) صالح معيض الغامدي: الكرم المستحيل: قراءة جديدة في قصيدة الحطيئة وطاوي ثلاث، مجلة الدارة، العدد ٤، ١٩٩٥م.

(٥٧) ابن رشيق القيرواني: العمدة، مصدر سابق، ٢٠/١.

(٥٨) قدامة بن جعفر: نقد الشعر، مصدر سابق، ص ٩٦.

(٥٩) المصدر السابق: ص ١٠٦.

(٦٠) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ٧٦/١.

(٦١) المصدر السابق: الصفحة نفسها.

(٦٢) ابن طباطبا: عيار الشعر، مرجع سابق، ص ٥٠-٥١.

(٦٣) الدلالة الاستعمالية: مصطلح في علم الدلالة يعني دلالة اللفظ على معناه الحقيقي.

(٦٤) ابن طباطبا: عيار الشعر، مصدر سابق، ص ٥١.

(٦٥) الثعالبي: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م، ٣٥/٢.

(٦٦) المصدر السابق: الصفحة نفسها.

(٦٧) الثعالبي: يتيمة الدهر، مصدر سابق، ٣/٣.

(٦٨) الجاحظ: المحاسن والأضداد، مؤسسة هنداوي، إنجلترا، ٢٠١٩م، ص ٨٠.

قائمة المصادر والمراجع

أولًا: الكتب العربية:

١- أحمد شوقي: الشوقيات المجهولة، نشرة محمد صبري السربوني، دار المسيرة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٩م.

٢- البيهقي: المحاسن والمساوئ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت.

٣- الثعالبي: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.

٤- جابر عصفور: مفهوم الشعر: دراسة في التراث النقدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الخامسة، ١٩٩٥م.

٥- الجاحظ: المحاسن والأضداد، مؤسسة هنداوي، إنجلترا، ٢٠١٩م.

٦- الجُرجاني (علي بن محمد السيد الشريف): التعريفات، تحقيق ودراسة: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، د.ت.

٧- جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢م.
٨- حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، ١٩٦٧م.
٩- ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨١م.
١٠- روز غريب: النقد الجمالي وأثره في النقد العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٥٣م.
١١- سعيد السريحي: حجاب العادة: أركيولوجيا الكرم من الخطاب إلى التجربة، الدار العربية للعلوم، ونادي جازان الأدبي، ٢٠١٥م، والطبعة الثانية ، مدارك للنشر، ٢٠٢١م.
١٢- ابن سلام الجُمحي: طبقات فحول الشعراء، قرأه وشرحه: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، د.ت.
١٣- ابن طباطبا العلوي: عيار الشعر، تحقيق وتعليق: محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، الطبعة الثالثة، د.ت.
١٤- عادل العوا: العمدة في فلسفة القيم، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.
١٥- عثمان موافي: الخصومة بين القدماء والمحدثين في النقد العربي القديم: تاريخها وقضاياها، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، مصر، د.ت.
١٦- ابن قتيبة: الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد شاكر، دار المعارف، الطبعة الأولى، ١٩٦٦م.
١٧- قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
١٨- مجمع اللغة العربية: المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٨٣م.
١٩- مجمع اللغة العربية بالقاهرة: المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

٢٠- محمد بن مريسي الحارثي: الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي حتى نهاية القرن السابع الهجري، نادي مكة الثقافي الأدبي، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
٢١- محمد محمد حسين: الهجاء والهجاءون في صدر الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٦٩م.
٢٢- محمد مندور: النقد المنهجي عند العرب، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٩٦م.
٢٣- مراد وهبة: المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.
٢٤- المرزباني: الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.
٢٥- المرزوقي: شرح ديوان الحماسة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.
٢٦- مريم النعيمي: النقد بين الفن والأخلاق حتى نهاية القرن الرابع الهجري، المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث، قطر، ٢٠٠٨م.
٢٧- ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
٢٨- نجوى صابر: النقد الأخلاقي: أصوله وتطبيقاته، دار العلوم العربية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
٢٩- يوسف خُليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة، د.ت.

ثانيًا: المراجع المترجمة:

٣٠- مجموعة من المؤلفين بإشراف باتريك شاردو، ودومينيك منغنو: معجم تحليل الخطاب، ترجمه عن الفرنسية: عبد القادر المهيري، وحمادي صمود، منشورات دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، ٢٠٠٨م.
٣١- ميشال فوكو: إرادة المعرفة، ترجمة: جورج أبي صالح، مركز الإنماء القومي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.
٣٢- ميشال فوكو: حفريات المعرفة، ترجمة: سالم يفوة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٧م.

ثالثًا: الرسائل الجامعية:

٣٣- غسان عبد الخالق: الأخلاق في النقد العربي من القرن الثالث حتى نهاية القرن السادس، رسالة دكتوراه مخطوطة، الجامعة الأردنية، ١٩٩٦م.

رابعًا: المقالات والدوريات:

٣٤- السيد عطية: تفكيك القيم في الشعر العربي القديم، مجلة نقد وتنوير، السنة ١٤، العدد ١٤، ديسمبر، ٢٠٢٢م.

٣٥- صالح معيض الغامدي: الكرم المستحيل: قراءة جديدة في قصيدة طاوي ثلاث، مجلة الدارة، العدد ٤، ١٩٩٥م.

٣٦- طارق زينان: إشكالية العلاقة بين الشعر والأخلاق في النقد العربي القديم، مجلة قضايا الأدب، الجزائر، المجلد الخامس، العدد الأول، ٢٠٢٠م.

٣٧- عبد الحق طالبي: ميشيل فوكو وتجاوز المناهج الفلسفية التقليدية، قراءة في المنهج الأركيولوجي، مجلة منتدى الأستاذ، المجلد الأول، العدد الأول، ٢٠١٩م.

٣٨- عبد الخالق صديقي: النقد الأخلاقي عند العرب القدماء، مجلة بدايات، المجلد الرابع، العدد الأول، يناير، ٢٠٢٢م.